الحضـــــارة المصرية
في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثري اريك بيت

للأستاذ أحمد نجيب هاشم

« تتمـــة »

ولما كان الكهنة هم أكثر الناس علماً كان منهم الموظفون المسئولون عن الفيضان وعمل الترتيبات اللازمة له فكان بمعابدهم مقاييس لمعرفة زيادة النيل، وكانت بسيطة التكوين، كل منها بئر حلزونية أو مربعة الشكل توجد على مقربة من النهر ومتصلة به فكل ارتفاع أو انخفاض في النهر يصحبه بطبيعة الحال المثل في البئر، وبالبئر أرقام تفيد هذا الارتفاع أو الانخفاض، وبها درجات يستطيع المرء أن ينزل عليها كي يقرأ مستوى المياه التي وصلت إليه يوماً بعد يوم فيعرف مقدار الزيادة، ولما كان الفيضان يبدأ غالباً حوالي الوقت نفسه كل عام سهل على الكهنة ملاحظة هذه العملية وتدوين أرقامها، وبموازنتها بالأرقام التي قيدوها في السنوات السابقة أمكنهم أن يعرفوا حالة الفيضان المقبل إن كان مرتفعاً أو منخفضاً بالنسبة لسابقه، وبذا كان في استطاعتهم أن يحددوا الوقت الذي تفتح فيه الجسور كي تغمر المياه الأرض كلها فإن كان الفيضان مرتفعاً جداً أرسلوا تحذيراً إلى الناس كي يقيموا السدود، وكانت الحكومة في هذه الساعة تسخر كل الناس في هذه العملية، وكان للفيضان أثر آخر، ذلك أن مياهه بعد أن تغمر الأرض مدة ستة أو سبعة أسابيع كانت تمحو الحدود التي بين أرض الفلاح وزميله أو تغطيها بالطمي، فعمد المصريون إلى مسح الأرض كي يعرف كل فرد مساحة أرضه بالضبط، وبذلك بدأوا علم الهندسة إذ وجدوا في مسح الأرض أضبط مقياس وأنه أفضل من وضع أحجار على الحدود، ولا تزال مشكلة ضبط الحدود موجودة في مصر، فالنيل في أثناء الفيضان يزيد مساحة الأرض الواقعة على حدود الصحراء، ولذا يحاول الفلاحون هناك الانتفاع بهذه الزيادة التي تسمى بطرح البحر بضم جزء منها إلى أملاكهم القليلة، وقد لا تبلغ هذه الزيادة ثلاثين أو ستين سنتيمتراً كل عام ولكنها تزداد على مر السنين، ولذلك يهتم مفتشو الحكومة بحراستها كما كان يفعل زملاؤهم منذ آلاف السنين

الفنون

الحفر والرسم: رأينا نواة التقدم الفني في العهد السابق للأسرات إذ وصل الحفر البارز درجة عالية كما تدل على ذلك مقابض السكاكين العاجية والألواح الأردوازية والتماثيل التي وجدت في « قفط » كذلك رأينا لوح « نارمر » الذي يرجع إلى أول الأسرة الأولى كثيراً من قواعد الرسم التي استعملت فيما بعد في الفن المصري، فالرسوم الدقيقة القليلة البروز كانت مناسبة لمملكة تسطع فيها الشمس ويشتد الظل، وقدر للحفر نجاح عظيم في تاريخ مصر، وليس في وسعنا أن نتتبع هذا التطور في الأسرات الثلاث الأولى لقلة الأمثلة وبعد بعضها عن بعض، ولو أن لوح قبر الملك «زت» وقطعاً صغيرة كثيرة من مقابر الملوك في « أبيدوس » تدل على تقدم مضطرد في الأسرتين الأوليين لا سيما من حيث المقدرة الفنية وحسن استعمال المواد، ثم تصل هذه الأمثلة فجأة إلى أجمل مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة كمقبرة « تي » في سقارة فهناك نرى الفن المصري في أوج عظمته وتنتقل العين بين الرسوم انتقالا سهلا، وهذه هي ميزة الفن في هذه الفترة، ولكن نلاحظ أن قواعد المنظور تكاد تكون معدومة في رسوم هذا العصر ونقوشه، فاذا أريد رسم شيء فوق آخر فما على الفنان سوى أن يضعه فوقه، كذلك كان يرسم الانسان عادة جانبياً، ولكن مع ذلك نشاهد كتفيه كأنما ينظر إليها من الأمام، وعلى هذه الطريقة استمر المصريون يرسمون نقوشهم طول عهد المملكة القديمة وبالرغم من هذه الغلطات فان النقوش البارزة على الألواح الخشبية التي عثر عليها في مقبرة حي من الأسرة الثالثة تعد من أجل القطع الفنية في العالم، فهي تمتاز بما تبعثه في النفس من أفكار لا نهاية لها

النحت: وقد سار النحت جنباً إلى جنب مع الرسوم البارزة، فأخرجت مصر من الأسرة الرابعة إلى السادسة أكبر مقدار أخرجته من التماثيل في تاريخها بعد ذلك. وكان الدافع إلى عمل التماثيل دينياً أكثر منه فنياً إذ اعتقد المصريون أن الشخص بعد

موته يعيش فى مقبرته عيشة لا تختلف كثيراً عن حياته فى الدنيا ناهتموا بتحنيط جثته مخافة أن يلحق هذه المومياء العطب ورأوا ضرورة وجود التمثال حتى تحل فيه الروح ، وإلى هذا الاعتقاد الغريب يرجع الفضل فى وجود كثير من أجمل التماثيل فى العالم وقد وضع المصريون بعض التماثيل من الخشب ومن الحجر ، والقليل منها من الجرانيت والصوان ، وصنعوا كثيراً من التماثيل من حجر الجير الملون ، ومن أهم تماثيلهم تمثال « خفرع » المصنوع من الصوان وتمثال « شيخ البلد » « والكاتب الجالس القرفصاء » المحفوظ بالاوفر « وتمثال نفرت مع الأمير راع حوتب الذى وجد بميدوم وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى »

العمارة

بدأ ظهور فن العمارة فى مصر منذ أخذ إنسان ما قبل الأسرات يبطن جدران مقبرته بقوالب من طمى النيل المجفف فى الشمس ، ولعله استعمل هذه القوالب فى بناء بيته النماذج الأول ولا يبدأ أهم دور فى تطور العمارة فى مصر إلا ببدء العصر التاريخى إذ استعمل الحجر لأول مرة فى البناء فى عصر الأسرة الأولى فبنيت أرضية مقبرة الملك « دن » بأبيدوس من حجر الجرانيت وهذا أقدم مثل معروف لنا ، وبعد أن تنقضى أسرة كاملة تجد فى مقبرة « خاستخموى » أول ملوك الأسرة الثالثة حجرة بأكملها مبطنة بالحجر الجيرى

ولا بد أن فن البناء تقدم بخطى حثيثة فى الأسرتين الأولى والثانية ، وتدل الحفريات الحديثة فى سقارة على أنه وصل إلى درجة عالية أيام الأسرة الثالثة ، ولذا يعتبر العلماء أن هذا التقدم هو نهاية لا بداية عصر معمارى عظيم فقد عثر هناك على أعمدة من الطراز الدورى Doric وكانت النماذج الوحيدة المعروفة لهذا الطراز هى تلك التى عثر عليها فى مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة فى بنى حسن ، أى بعد النماذج السابقة بحوالى ٩٠٠ سنة

ويلى آثار سقارة من حيث الترتيب الزمنى معابد أهرام الدولة القديمة ومعابد الشمس فى أبى صير ، وإذ كانت عمارة هذا العصر معروفة لنا من المبانى الجنائزية فعلينا أن نبحث أولا تطور بناء المقبرة عند أولئك المصريين الأول

أخذت المقبرة فى أواخر عهد ما قبل الأسرات تتطور فى إحدى طريقين منفصلين وهما المقبرة ذات الدرجات والمقبرة التى فى شكل حفرة ولكل منهما تطور طويل فى عهد الدولة القديمة

تكوّن كل قبر مصرى من جزئين رئيسيين : اللحد وهو تحت الأرض وتدفن الجثة فيه ثم مكان العطايا وهو فوق الأرض ويضع فيه أقارب الميت الهبات اليومية من طعام وشراب وغير ذلك مما يحتاجه كي يواصل حياته فى القبر ، ويحتمل أن بعض المقابر الأولى كانت خلواً من هذا الجزء أو لعله اقتصر على كوم من الرمل أو الحصى ، وسواء هذا أو ذاك فقد تطور هذا الجزء منذ عهد الأسرة الأولى إلى شكل مصطبة ذات جوانب مائلة فى أحدها كوة صماء لوضع العطايا تجاهها

وبتولى الأسرة الرابعة الحكم كانت هذه المبانى البسيطة قد تطورت إلى تلك المصاطب الحجرية الهائلة التي بناها الأشراف لأنفسهم حول أهرام ملوكهم ، ويقع اللحد تحت المصطبة الأولى نفسها وبداخل المصطبة حجرات لوضع العطايا من أكل وشراب

اختلف هذا النظام اختلافاً بسيطاً فى الهرم ، أجل كان الملك يدفن فى حجرة تحت الأرض منحوتة في الصخر ويعلوها هرم كان كالمصطبة تذكاراً ظاهراً فوق القبر إلا أن الهرم لم يكن بداخله حجرات العطايا بل بنيت هذه فى الجهة الشرقية منه ونظراً لكثرتها فقد أطلق عليها اسم معبد الأهرام ؛ فان كان الهرم هو تطور المصطبة كما يقول البعض فما المعبد إلا تطور الكوة الصماء التى كانت توضع العطايا تجاهها

ولما كان الهرم ومعبده قائمين على هضبة مرتفعة عن مستوى الحقول المحيطة بهما بنحو ١٠٠ قدم فقد بنى صاحبه طريقاً منحدراً مرصوفاً كي يسهل الوصول من الوادى إلى المعبد وبنى في أسفل هذا الطريق معبداً صغيراً سمى بمعبد الوادى ، ويقول البعض إن زيارة المعبد الرئيسى كانت قاصرة على أقارب فرعون ورجال بلاطه وإن معبد الوادى كان لزيارة عامة الشعب

ويرى فريق آخر أن معبد الوادى لم يكن سوى مكان يتطهر فيه الزائر قبل أن يصل إلى المعبد الرئيسى ، وما المعبد المعروف بمعبد أبى الهول إلا معبد الوادى لهرم « خفرع » وقد